

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ علي العمري

— ٥ —

يحب علينا بعض الكاتبين أننا نلتانس بما كتبه المتقدمون في مقالاتنا هذه التي نتقد بها بعض آراء الجامعة في البلاغة، ويزعمون أن المتقدمين كانوا أصحاب أذواق مريضة، ومن المجب أن حجة الكاتب على ما يكتب هو ما ينقله عن بعض كتابنا المحدثين، أفيحرم علينا أن نستضيء بامام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ويحمل له أن يتكلم على ما يقوله بعض المحدثين؟ ليفتنا هؤلاء العلماء الاعلام الذين وجدوا في أدب عبد القاهر وبلاغته غذاءهم ودرهمهم، وإذا أنكر منكر على هذا الامام شيئاً قلن يكون هذا الشيء ذوقه. يعرف ذلك العالمون المنصفون، ثم أني كنت اعزمت أن أرد على هذا الذي يجادلني على صفحات « الرسالة »، ولم أجد سبيلاً أهدي إلى الحق من

بالسلم كما تؤخذ سائر القضايا إلى حرب مفاسدها أكثر مما يرويه مفسدة، فقابلهم على حرباً بحرب، وجرى الأمر بينهم في ذلك إلى أن قتل طلحة والزيير وعلى، وآل أمر المسلمين بعدهم إلى معاوية.

وأما عن الأمر الثالث، فإن معاوية لما آل الأمر إليه لم يعد النظر في قضية عثمان، ولا شك أنه وجد نفسه أمام جنابة قتل لا يعلم القاتل فيها يقين، فلا يمكنه أن يأخذ أحداً فيها بقصاص، كما وجد نفسه أمام كلمة قد اجتمعت، وأرادت أن تنسى الماضي بما له وما عليه، لتأسو الجروح، وتنقضي على الفتن، فيجتمع الشمل، ويعود المسلمون إخواناً، ويتموا ما بدأ به السلف الصالح من الفتوح، ويعملوا متعاونين على إعلاء كلمة الإسلام. فلم يجد معاوية مع هذا إلا أن يترك أيضاً أمر النظر فيمن اشترك في تلك الفتنة، حرصاً على جمع الكلمة، ونزل في ذلك على مثل ما نزل عليه علي، رضي الله عنهم جميعاً.

عبد المتعال الصميري

أن أحتم إلى عقول قراء « الرسالة » وكثيرون منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة، وهي بين أيديهم.

وعجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم في خدمة علوم البلاغة ونحن لم نفعل شيئاً، لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثاني للهجرة إلى أوائل القرن السابع وهم يُنشئون هذه العلوم وينمونها، حتى اكتملت قواعدها على يد أبي يعقوب يوسف السكاكي، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقت بهم الاجتهاد، ولكنهم جاهدوا وجهدوا، وخدموا هذه العلوم بما لا يرى موصفاً لتفسيه الآن، فإذا صنعنا نحن؟ ملأنا أذهان التلاميذ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم، والطمع في كفايتهم، ولكن من غير أن نبني قاعدة، أو نهدم على بصيرة ونصف قاعدة، وإني لأرى خير ما يمثل به في هذا الموضوع المثل العربي: « أسمع جمعة ولا أرى طحنا ».

وقد سمعت أن فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولي يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التي يسميها « حركة الرسالة » بكتاب في البلاغة يخرجه للناس؛ وإنا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش إلى التجديد في هذه العلوم، وقد تكون أول من يرفع الصوت في امتداحه إذا وجدنا فيه ما يمدون به، ولعله لا يكون سورة لهذه الرسائل الصغيرة التي أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها، ثم نعود إلى مناقشته في بعض مسائل القصر أعاماً لما كنا بدأنا به.

٢ — لا يرتضى تعريف العلماء للقصر الإضافي فيقال لنا هو بتعريف آخر دعاء إليه — فما نظن — رغبته في أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد، ووجد أنسب ما يوصله بالقصر الإضافي هذا الذي يسميه علماء النفس « تداعي الماني » فما يمنع أن يكون القصر الإضافي نظر فيه إلى هذه الفكرة النفسية؟ والذي حفظناه عن مشايخنا وقرائنا في كتب العلماء أن القصر الإضافي يكون حين تتمثل صفتان في ذهن، فقد يمتد اجتماعهما في موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الأفراد، وقد يمتد ثبوت أحدهما دون الأخرى وأنت تريد أن تمكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب؛ وقد يحار في أمر الصفتين فإذا أثبت له إحداها ونقيت الأخرى كان قصر التعمين؟ فدار القصر الإضافي اذن على صفتين أو

أكثر في ذهن المخاطب وأمام بسيرته ، وله فهما اعتقاد ، لكن الشيخ يقول : « وأساس القصر الإضافي ما يقرره النسيون ، ويسمونه تداعي المعاني ، أى أن المعاني يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المتنافاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الإضافي في الكلام قائم على أفراد معنى من المعاني لا على أنه لا يوجد سواء في الموصوف ، ولكن على أساس أن تبعد سواء هذا عن تفكير المخاطب ، أى أن هذا النوع حاجز بين الصفة التي تريد إثباتها للمتحدث عنه وبين ما يمكن أن يقفز إلى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة ، فتلا تقول ما تريد إلا وباضى ، فعند ذكر كلمة رياضي يحدث تداع في المعاني فتجول في ذهن صفات أخرى نحو مهندس . فلكي . موسيقى . مخترع . أديب . ولكن إذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه » وهذا كلام واضح وصریح في أن المقصود من القصر هو إبعاد ما عسى أن يجول بذهن المخاطب من الصفات التي تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأنه ليس عند المخاطب صفة يشكرها وأخرى يثبها ، وينبئ على هذا - ولا شك - فساد هذا التقسيم الذي ذكره العلماء للقصر الإضافي . وقبل أن رد على الشيخ نحب أن نذكر له وأن ينبذ علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعي المعاني أو تناديهما فلم يعلل الجواب صياحا وعجيحا ، بل مر يذكر المسألة في بساطة ومهولة فقال في كتابه دلائل الإعجاز « وإعلم أن قولنا في الخبر إذا أخبرنا ما زيد الا قائم » أنك اختصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ونفيت ما عدا القيام عنه ، فأما نفي أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك ، ولم رد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل إذ لستنا ننفي عنه بقولنا : ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أنا إذا قلنا : ما قائم إلا زيد لم رد أنه ليس في الدنيا قائم سواء ، وإنما معنى ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك » ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا بكل الدقة فلم يقل إن هذا في القصر الإضافي ، وإنما ساقه على أنه فكرة عامة في القصر ، وأمثلة

صالحة لأن تكون قصرا حقيقيا تحقيقيا أو ادعائيا ، وأن تكون للقصر الإضافي ولكن بشرط أن يعين المخاطب في ذهنه المثبت والنفي . ثم رد على الأستاذ فنقول له : أرجع إلى شواهد القصر الإضافي فسترشدك إلى أن النزاع يكون في شيئين مائلين في ذهن المخاطب ، ولنسق نحن جملة من الشواهد القصيحة يقول الله تعالى : « إنا أنت مذكر است عليهم بمسيطر . وما أنت بمسمع من في القبور إنا أنت إلا نذير . ما هذا بشرا إنا هذا إلا ملك كريم . أحم يسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . ويقول صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب . إنا أنا قائم والله يعطى . وهكذا إذا تتبعنا الأمثلة التي صرح فيها بالثبوت والنفي وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب وله فيه نظارة ، فإذا كان النفي عاما لم يكن هذا من القصر الإضافي ، ولذلك يقول بعض العلماء إن قول الفطش الضبي :

إلى الله أشكوا إلى الناس أنني أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب من القصر الحقيقي ، واست - والله - أدرى من أين جاء للشيخ أن الغرض من القصر الإضافي أن نحول بين ذهن السامع وبين صفات آخر تتوارد عليه لها بهذه الصفة المثبتة صلة ورباط ؟ !

٣ - وقد انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تقسيم القصر الإضافي ، ووقفوا عند قصر الأفراد والقلب والتميز باعتبار حال المخاطب في اعتقاد الشركة أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ ينتبه إلى أن القسمة العقلية كانت تقتضي قسما رابعا وذلك في حال ما إذا كان المخاطب خالي الذهن ، وينبئ على العلماء اهتمام هذا القسم الرابع يقول « وعلى ذلك يتضح لنا أن اغفال الحالة الرابعة وهي حالة خلو الذهن في باب القصر غير مبني على نظر صحيح » . « فتلا يجوز لك أن تقول لخالي الذهن : عاما : لا اله إلا الله اعتمادا على ما يقدرونه في علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب إصلاحه ، والصورة الأولى يسهل عموها » .

« أما نحن فنقول لهم إن أسلوبكم يقتضي أن تردوا موافق المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة فلم أغفلتم الحالة الرابعة ؟ » والذي نؤكد أنه أن تقسم العلماء مبني على نظر صحيح ، وأنه لاحالة

الله شيئاً . وجدنا أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسي في المعنى قصد به التوهين من شأن الرسول في هذا المقام . محمد رده . يطلع إليه ؟ مرسل زى بقية المراسيل ييجي وروح . القصر هنا واضح في أن المقصود به التوهين من أثر الرسول في الدين ولذلك جاءت تسميته هنا رسول ولو قال نذير . هاد . سراج . لقطع الطريق على هذا الفرض » وقال : « ماثلت لهم . . الآية . هذا التأنيب المؤلم مستفاد من وراء الألفاظ ، وهو هنا المرعى البلاغي للقصر وبدل عليه » وقيل أن ترد على هذا الكلام التداي نذكر ما قاله العلماء في أغراض القصر حتى ننق عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا . قالوا من دواعي القصر (١) داعي القصر الحقيقي التحقيق بيان الواقع (٢) داعي القصر الادعاءى المبالغة وعدم الاكتراث بما عدا المقصود عليه (٣) الرد على المخاطب في قصر القلب وقصر الأفراد (٤) تعيين الهم عند المخاطب في قصر التعيين (٥) قد يقصد من القصر مجازاة الخضم (٦) التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والفرض منه وجعل القصر وسيلة إليه وذلك كثير في أنما (٧) تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لاعتبار مناسب فيخطاب بأسلوب القصر (٨) .

أما ردنا على ما ذكره من أغراض فواضح أنه ليس القصد في الآيات الأولى الخط من مقام الرسالة في الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول إن محمداً ليس شيئاً ؟ لا . يا شيخ ! المسألة أن الله يقول لهم : لا معنى لتعلق الدين بمحمد فإن الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتمائهم لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولو أنها أمر له قيمته وخطره لكن لا يجب أن يتعلق إيمان الناس بعبدة حياة صاحبها فهو أنما يدعو إلى الله . ولعل مما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبو بكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : إن محمداً ليس شيئاً في الدين ؟ ما نظن ذلك ولا رضى لمسلم أن يظنه . وأما التأنيب في الآية الثانية فليس مستفاداً من القصر وإنما هو مستفاد من السياق . استفهام تعجبي ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبي ، وهو المدعى عليه أنه دعاهم

رابعة هناك حتى تهتهم بأنهم أغفلوها ، وأدنى نظر في طبيعة القصر الإضافي يرشدنا إلى ذلك فلا يدفعه أن يكون المخاطب عارفاً بالثبوت والنفي فأنت تقول له : شوق شاعر لا كاتب إذا كان يعلم هاتين السفتين في شوق فيثبتهما معا أو ينفي أحدهما أو يتردد فيهما ، أما إذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية شوق وكتابته كان كلامك خلقاً من القول ، وبمبدأ عن اعتبار البلاء ، فإذا أردت أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد له من بادى الأمر رجعتنا إلى جهة أخرى وهى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ إن التكلم نزل المخاطب الخالي الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو الماكس ويرجع الأمر إلى قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، والعلماء إنما يذكرون المقام الأصلية ، أما الأمور المنزلة فيرجعونها إلى مشاهياتها ، ومعلوم ذلك عند من درس فهم يجعلون ضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، وينزلون غير المنكر منزلة المنكر ، وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول إن هذه أضرب أخرى للخير ، على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لا اله الا الله) لخالي الذهن لا يصح مطلقاً أن نجعله من القصر الإضافي ، وإنما القصر فيه حقيقى تحقيق ، وهذه الأقسام الثلاثة كما هو معروف لا تتأني في القصر الحقيقي .

٤ - وهذا بحث جديد يريد أن بطلنا به أستاذ الجامعة . العلماء قصروا في أغراض القصر ، وحصروها في النفي والاثبات وهو أمر يجب أن نؤاخذهم به « والذي نأخذ على صاحب الايضاح ومن لف لفه من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ما وراء القصر بأنما من أنواع القصر ، فكان يجب أن يوسموا حسهم أكثر من ذلك فليس القصر للاثبات والنفي بل هو للتضييق والتحديد » . فلمله ثبت مما قلناه إن للقصر مرأى أخرى وراء المعنى النحوى أهلها البلاغيون » وهذه الأغراض التى ذكرها ومثلها هى غرضان : التوهين ومثل له بقوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » والتأنيب ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم » قال : إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر